الباب الأول

في العصر الذي عاش فيه الغزالي

تمهيد

أريد أن أذكر شيئا عن العصر الذي عاش فيه الغزالي؛ وليس ذلك لأن الغزالي صورة لعصره. بل ليعرف القارئ إلى أي حد تأثر الغزالي بعصره وأثر فيه. فمن المجازفة أن ندرس عصرا من العصور، لنعرف من نبغ فيه من الفلاسفة، والكتاب، والشعراء؛ وإنما ندرس شخصية الكاتب، أو الشاعر، أو الفيلسوف. ثم نبحث عن المؤثرات التي كونت تلك الشخصية، فقد تكون هذه المؤثرات قريبة، وقد تكون بعيدة. وفقا لما أحاط بالشخص من الظروف.

ولتوضيح هذا أذكر أن الأستاذ الكبير الدكتور طه حسين درس العصر الذي عاش فيه أبو العلاء، ليعرف الأصول التي كونت وجهة نظره في الحياة، ثم فعل مثل هذا حين شرع في درس أبي نواس؛ ولكن الدكتور طه لا ينكر أن عصر أبي العلاء أنتج رجالا يسيرون غير سيرته، ويرون ما لا يراه؛ وأن عصر أبي نواس أخرج رجالا لا يسيغون العبث، ولا يجيزون المجون؛ فمن الواجب أن ندرس أولا ما بين أيدينا من آثار الفلاسفة، والكتاب، والشعراء، ثم نتبين بعد ذلك ما تألفت منه هذه الآثار فقد تكون نتيجة لمطالعات لا صلة بينها وبين العصر الذي ظهرت فيه. كما يمكن أن تكون نتيجة له بالذات.

وإلا فحدثني كيف يكون الشيخ محمود خطاب السبكي صورة لهذا العصر، وهو يكون من تلامذته جمهرة لا يشعر بها الناس؟ وأمثال الشيخ السبكي عديدون، ولكني خصصته لكثرة مؤلفاته، وقد يعثر عليه باحث يومًا في زوايا التاريخ، أفتراه يدرس يومئذ هذا العصر، ليعرف المؤثرات التي كونت عقلية هذا الرجل الذي يدهش حين تحدثه عن أهل هذا الجيل؟!

إنه لا شك في تأثير البيئة والعصر؛ ولكن ينبغي أن نعرف أن من الناس من يعيش في قومه وعصره، بجسمه لا بروحه، فلا يحس بما يحس به معاصروه، وإنما يشعر بما كان يشعر به من سبقوه بأجيال؛ ففي مصر اليوم، أناس من القرن الثالث، وآخرون من القرن السابع، كما في مصر اليوم من يمكن أن تكون آراؤه وأفكاره صورة صادقة لمكانه وزمانه، وأحب أن يعفيني القارئ من ضرب الأمثال.

من أجل هذا أجمل القول عن العصر الذي عاش فيه الغزالي وأكتفى بوضع صورة قريبة من الواقع للحالة العامة في عصره، ليتمثل القارئ زمان الغزالي ومكانه وليعرف ما تمس الحاجة إليه مما أثر بالفعل في حياته العقلية: فإن الغرض من هذا الكتاب إنما هو أن ندرس بالتفصيل آراء الغزالي في الأخلاق.

الفصل الأول

الدولة السلجوقية

-١-

لا نريد أن نفصل وصول تلك العشيرة التركية إلى الغلبة والاستيلاء على أكثر الأقطار الإسلامية؛ فإنه لا حاجة إلى ذلك الآن، وإنما نذكر فقط صورة مجملة لتلك المملكة الضخمة، التي تفيأ الغزالي ظلها الظليل.

ذكر الأستاذ محمد الخضري (بك) في محاضراته في الجامعة المصرية أن عشيرة السلاجقة انقسمت إلى خمسة بيوت: **الأول** السلاجقة العظمى، وهي التي كانت تملك خراسان، والري، والجبال، والعراق، والجزيرة، وفارس، والأهواز. والثاني سلاجقة كرمان. والثالث سلاجقة العراق. والرابع سلاجقة سورية. والخامس سلاجقة الروم.

أما السلاجقة الكبرى فهي الدولة التي أسسها ركن الدين أبو طالب طغرل بك وحياتها ٩٣ سنة: من ٤٢٩هـ - ١٠٣٩م إلى سنة ٥٢٢هـ - ١١٢٧م. وقد انقضت دولتهم على أيدي شاهات خوارزم.

وأما سلاجقة كرمان فكانوا من عشيرة قاروت بك بن داود بن ميكائيل بن سلجوق، وهو أخو ألب أرسلان، ومدة ملكهم ١٥٠ سنة. من ٤٣٢هـ - ١٠٤١م إلى ٥٨٣هـ - ١١٨٨م. وقد انقضت دولتهم على أيدي الغز التركمان.

وأما سلاجقة العراق وكردستان فقد ابتدأت دولتهم سنة ٥١١هـ - ١١١٧م. وانتهت سنة ٥٩٠هـ - ١١٩٤م على أيدي شاهات خوارزم بعد أن مكثت ٧٩ سنة.

وأما سلاجقة سورية فكانوا من بيت تتش بن ألب أرسلان بن داود بن ميكائيل بن سلجوق. وقد ابتدأت دولتهم سنة ٤٨٧هـ - ١٠٩٤م. وانتهت سنة ٥١١هـ - ١١١٧م. على أيدي الدولتين: النورية والارتقية. فكانت حياتها ٢٤ سنة.

وأما سلاجقة الروم: ملوك قونية واقصرا، فكانوا من بيت قطامش بن إسرائيل بن سلجوق، وقد ابتدأت دولتهم سنة ٤٧٠هـ - ١٠٧٧م. وانتهت سنة ٧٠٠هـ - ١٣٠٠م. فهي أطول دولة السلاجقة حياة، إذا مكثت ٢٣٠ سنة، وقد انقضت على أيدي الأتراك العثمانيين والمغول.

والذي كان يرتبط تاريخه من هذه البيوتات بتاريخ الدولة العباسية لدخول بغداد في حوزتهم السلاجقة العظمى وسلاجقة العراق الذين كان لهم السلطان على العباسيين من سنة ٤٤٧ إلى سنة ٥٩٠، أي ١٤٣ سنة.

واستخلف من آل العباس في عهد الدولة السلجوقية تسعة خلفاء، أولهم القائم بأمر الله الذي انتهى في عهده العصر البويهي، وآخرهم الناصر لدين الله الذي انتهى في عصره ملك السلاجقة.

-٢-

عاصر الغزالي أكثر ملوك الدولة السلجوقية الكبرى، فقد شهد عهد عضد الدين أبي شجاع ألب أرسلان، وجلال الدين أبي الفتح ملكشاه، وناصر الدين محمود، وركن الدين أبي المظفر بركياروق، وركن الدين ملكشاه الثاني، ومحمد ابن ملكشاه.

وقد ولد الغزالي في آخر عهد طغرل بك، الذي ملك بغداد، وتقرب من الخليفة حتى تزوج الخليفة بنت أخيه. والذي تطلع إلى أن يتزوج من البيت العباسي. وهو أمر لم تجر به العادة. فأرسل سنة ٥٤٣ يخطب بنت الخليفة، ثم ظفر بزواجها في حديث طويل.

أما ألب أرسلان فكان واسطة عقد الدولة السلجوقية، وفي عهده أسست المدارس النظامية، صاحبة الفضل على الغزالي، وسنعود إليها بعد قليل. وأما محمد ابن ملكشاه فهو الذي وضع له الغزالي كتاب التبر المسبوك في نصيحة الملوك.

هذا ما يهمنا من دولة آل سلجوق، وما نريد أن نزيد.

obeikandl.com

الفصل الثاني

الباطنية

في الوقت الذي كان فيه السلاجقة يبسطون سلطانهم على فارس والعراق والجزيرة إلى آخر ما استولت عليه تلك البيوتات التي أجملنا حالها في الفصل الماضي، كان الفاطميون يسيطرون على المغرب، وعلى مصر، ويهمون ببسط سلطانهم على أقطار المشرق، بعناية الدعاة.

والذي يعنيني الآن هو إجمال دعوة الباطنية، لأن الغزالي شغل بهم، وكتب في الرد عليهم، وإن لم تصلنا كتبه في هذا الباب، وسترى حين نتكلم عن خطته في التأليف كيف اتهم بالميل إليهم، إذا شرح آراءهم عند نقدها بطريقة تقربها من متناول العقول.

وأحب أن يعرف القارئ أن أكثر ما يحتل رءوس المسلمين من الأفكار والعقائد، وليس إلا أثرًا للدعوات المتعددة التي قام بها العباسيون في الشرق، والفاطميون في الغرب، و{كل حزب بما لديهم فرحون}.

والواقع أن الدعاة كانوا غاية في المكر والدهاء، فقد عرفوا كيف يملئون تلك الرءوس الجوفاء بالخرافات، والوساوس والأضاليل؛ وهذه القاهرة لا تزال سماء مسكونة بالمعبودات الصغيرة؛ كسيدنا الحسين، والسيدة زينب، والسيدة فاطمة النبوية، ومن إليهم من الأولياء، فيما زعم الفاطميون ومن لف لفهم من علماء الإسلام!!

ولولا خوف الإطالة لشرحت للقارئ طرائق الباطنية في نشر الدعوة Propagande فقد كانوا أمهر من الإنكليز والفرنسويين، والأمريكان في العصر الحديث، وكانت جنايتهم شديدة الخطر في مسخ عقول الأمم الإسلامية المسكينة، التي قيدها الجهل، ثم رماها بين أيدي طلاب الملك من العباسيين والفاطميين. فلم يرحمها أولئك ولا هؤلاء.

كان دعاة الباطنية لمكرهم يتنقلون بالطالب من حال إلى حال، فيفهمونه أولا إن الآفة التي نزلت بالأمة فشتتت شملها، وفرقت جمعها، ليس لها من سبب إلا ذهاب الناس عن أئمتهم الذين يعرفون بواطن الشريعة؛ لأن دين محمد -فيما يزعمون- ليس هو ما يعرفه العامة، بل هو علم خفي غامض، ستره الله في حجبه، وعظمه عن ابتذال أسراره، فلا يطيق حمله، ولا يقوم بأعبائه إلا ملك مقرب، أو نبي مرسل، أو عبد مؤمن امتحن قلبه بالتقوى؛ ثم يتوغلون مع الطالب في مجاهل من ظلمات الآراء، والأهواء، بعضها خاص بتقديس أئمتهم، ورفعهم إلى الاختصاص بفهم أسرار التشريع، وبعضها خاص بتنظيم الدعوة ونشرها بين الناس.

وأشهر دعاة الباطنية في الشرق هو الحسن بن الصباح. الذي رحل إلى مصر، فلقي فيها الخليفة المستنصر، وتلقى بها الدعوة الباطنية، ثم عاد إلى مرو لنصرة هذا المذهب بقلمه وسيفه، فكان أول ما فعله أن استولى على قلعة (الموت) وتحصن بها، ثم ثبت قدمه في الأقطار الفارسية، بحيث كان يحسب له ولأتباعه ألف حساب، ونشبت بينه وبين السلاجقة عدة حروب.

ومن شاء الزيادة على هذا القدر من أمر الباطنية فليرجع إلى كتب التاريخ، ثم ليرجع إلى تفصيل آرائهم إن شاء في كتاب الملل والنحل للشهرستاني، فإن في آرائهم غرائب وأعاجيب، وقد ورد ذكرهم في عدة مواطن من كتب الغزالي، وعلى الأخص

كتابه «فيصل التفرقة، بين الإسلام والزندقة» فليعد إليه مَنْ أراد أن يرى مناقشته لبعض ما يقولون.

obeikandl.com

الفصل الثالث

الحروب الصليبية

-١-

قد عرفت أن سلطان السلاجقة امتد على بلاد الروم، وفي قونية واقصرا، وما إليهما من البلاد، وعرفت كيف كان التنافس بين السلجوقيين والفاطميين، فليس من الصعب أن تعرف كيف دعا ملك الروم حملة الصليب من الأفرنج إلى قتال المسلمين، فقد أمن جانب الفواطم لعدواتهم للسلاجقة، وإنها لفرصة سانحة، لا يصح أن يضيعها طلاب الملك، وعشاق الحياة!

لجأ قيصر الروم إلى البابا رئيس النصرانية، يستصرخه لصد أعدائه السلاجقة، فرآها البابا فرصة لبسط نفوذه على ملوك أوربا وأمرائها، فدعاهم إلى الدفاع عن النصرانية، وإخراج بيت المقدس من أيدي المسلمين.

وأود أن يعرف القارئ أن الساسة يعتمدون دائما على استغلال العواطف، وإخماد عقول الجماهير، ومن هنا لم يجد دعاة الحروب الصليبية بدًّا من الكذب على الحقيقة والتاريخ، فزعموا أن المسلمين يضطهدون نصارى الشرق، ويسومونهم سوء العذاب، وقد نجحوا في استنفار أوربا، عامتها وخاصتها، وساقوهم باسم الدين إلى ميدان القتال.

والدين أداة من أدوات الفتح، والاستيلاء، في أيدي الشعوب القوية، وغل في أعناق الأمم الضعيفة، والويل كل الويل للمغلوب! فقد ملك المسلمون الأرض باسم الدين، كما ذلوا بعد ذلك باسم الدين، لأن القوي الرشيد يملك بدينه آخرته

ودنياه، أما الضعيف المأفون فلا يزال يرتطم في ضعفه الذي يسميه دينا حتى يحيق به الهلاك!

وكذلك زحف شياطين الغرب على الشرق باسم الدين ففعلوا به الأفاعيل، في حين أن المسلمين كانوا يبكون في مساجدهم يوم الجمعة ليوقظوا الهمم الخوامد، والنفوس الرواكد، فما استمع لهم أحد، ولا استجاب لهم مجيب! ولم ذلك؟ ذلك بأن الدين لا يقوم بنفسه، وإنما يقوم به كما قلت: طلاب الملك، وعشاق الحياة! وإلا فحدثني لماذا تغاضى الفاطميون أبناء الرسول، ولم يغضبوا لزحف النصارى على أملاك المسلمين؟

الملك. العظمة. الحياة. تلك آمال الأمم، وأماني الشعوب. فإن أدى الدين إلى الملك والعظمة والحياة، فهو نعمة من الله، لأن الله بالمؤمنين رءوف رحيم، أما إن نزل بهم إلى الحضيض فهو بدعة ابتدعها الأحبار والرهبان، وأمثال الأحبار والرهبان. ومن كان في ريب مما نقول فليسأل التاريخ.

ثم أخذ الصليبيون في فتح بلدان المسلمين، فاستولوا على كثير من مدن آسيا الصغرى والشام، وكونوا لهم فيها إمارات سميت بالإمارات اللاتينية، نسبة إلى الأجناس التي يتألف منها حملة الصليب.

وأول ما أسس من هذه الإمارات إمارة الرها بوادي الفرات سنة ٤٩٠هـ - ١٠٩٧م. ثم أنطاكية سنة ٤٩١هـ - ١٠٩٨م. ثم فتحوا بيت المقدس. وقتلوا من أهله نحو ٧٠٠٠٠ مسلم، بعد أن سجل التاريخ من سوء رأي الفواطم ما يمنعنا من ذكره الحياء.

-٢-

أتدري لماذا ذكرت لك هذه الكلمة عن الحروب الصليبية؟ لتعرف أنه بينما كان بطرس الناسك يقضي ليله ونهاره، في إعداد الخطب وتحبير الرسائل، لحث أهل أوربا على امتلاك أقطار المسلمين، كان الغزالي (حجة الإسلام) غارقًا في خلوته، منكبًا على أوراقه. لا يعرف ما يجب عليه من الدعوة والجهاد! ويكفي أن نذكر أن الإفرنج قبضوا على أبي القاسم الرملي الحافظ يوم فتح بيت المقدس، ونادوا عليه ليفتدي، فلم يفتده أحد، ثم قتلوه، وقتلوا معه من العلماء عددًا لا يحصيه إلا الله، كما ذكر السبكي في طبقاته.

وما ذكرنا هذه المأساة إلا لنعد القارئ لفهم حياة الغزالي، ولنقنعه بأنه ليس من الحتم أن يكون الرجل الممتاز بعلمه صورة لعصره، فإن كتب الغزالي لا تنبئنا بشيء على تلك الأزمة التي عاناها المسلمون حين ابتدأت الحروب الصليبية.

ومن الخطأ أن نقصر الأخلاق على سلوك المرء كفرد مستقل عن الحياة الاجتماعية، فلكل ظرف واجباته، ويتعسر وجود حالة لا تقضي فيها الأخلاق.

الفصل الرابع

المدارس النظامية

نسبة إلى «نظام الملك»: وزير السلطان ألب أرسلان، وابنه ملكشاه. مكث في الوزارة ثلاثين سنة: عشر منها في سلطنة ألب أرسلان. وعشرون في سلطنة ملكشاه. وقد مات «نظام الملك» قتيلًا، ولكن اختلف المؤرخون في سبب قتله: فمنهم من يروي أنه لما أسرف في النفقة على المدارس النظامية، حتى بلغ ما ينفقه على طلبة العلم ٦٠٠٠٠٠ دينار في السنة، وشي به بعضهم إلى السلطان ملكشاه، وقالوا: «إن الأموال التي ينفقها نظام الملك في ذلك تقيم جيشًا يركز رايته في سور القسطنطينية» فعاتبه ملك شاه في ذلك فأجابه «يا بني: أنا شيخ أعجمي، لو نودي علي في من يزيد لم أحفظ خمسة دنانير، وأنت غلام تركي، لو نودي عليك عساك تحفظ ثلاثين دينارًا! وأنت مشتغل بلذاتك منهمك في شهواتك، وأكثر ما يصعد إلى الله تعالى معاصيك دون طاعاتك، وجيوشك الذين تعدهم للنوائب، إذا احتشدوا كافحوا عنك بسيف طوله ذراعان، وقوس لا ينتهي مدى مرماها إلى ثلاثمائة ذراع، وهم مع ذلك مستغرقون في المعاصي، والخمور، والملاهي، والمزمار، والطنبور، وأنا أقمت لك جيشا يسمى جيش الليل، إذا نامت جيوشك ليلًا قامت جيوش الليل على أقدامهم، صفوفا بين يدي ربهم، فأرسلوا دموعهم، وأطلقوا ألسنتهم، ومدوا إلى الله أكفهم بالدعاء لك ولجيوشك، فأنت وجيوشك في خفارتهم تعيشون، وببدعائهم تبيتون، وببركاتهم تمطرون وترزقون» فقبل ملكشاه وسكت!

نقل هذا جورجي زيدان في كتاب «التمدن الإسلامي» عن كتاب سراج الملوك، ولم يعقب عليه، بل اكتفى بأن ذكر أن «نظام الملك» توفي مقتولا سنة ٤٨٥هـ.

ويذكر غير واحد من المؤرخين أن «نظام الملك» ولى حفيده عثمان بن جمال الملك أعمال مرو، وأرسل السلطان إليها شحنة[1] اسمه قودن، وهو من خواصه، فنازع عثمان في شيء. فحملت عثمان حداثة سنه، واعتزازه بجده، على أن قبض على قودن وسجنه، ثم أطلقه؛ فقصد السلطان ملكشاه مستغيثا شاكيا فاغتاظ السلطان ملكشاه لاستبداد «نظام الملك» وبنيه، وخروجهم على حدود سلطتهم. وأرسل إلى نظام الملك رسالة يقول فيها: «إن كنت شريكي في الملك، فلذلك حكم، وإن كنت نائبي، فيجب أن تلزم حد التبعية والنيابة، فهؤلاء أولادك قد جاوزوا أمر السياسة وطمعوا، حتى فعلوا... إلخ».

فقال نظام الملك لحاملي تلك الرسالة:

«قولوا للسلطان: إذا كانت لم تعلم بعد أني شريكك في الملك، فاعلم! فإنك ما نلت هذا الأمر إلا بتدبيري ورأيي، أما تذكر حين قتل أبوك، فقمت بتدبير أمرك، وقمعت الخوارج عليك: من أهلك وغير أهلك، وأنت في ذلك الوقت تتمسك بي؟ فلما قدت الأمور إليك، وأطاعك القاصي والداني أقبلت تنتحل لي الذنوب، وتسمع في الوشايات. قولوا للسلطان: إن دواتي مقترنة بتاجك، فمتى رفعتها رفع، ومتى سلبتها سلب!».

ويذكرون أن الرسل اتفقوا على كتمان هذه الرسالة، ولكن كان للسلطان عين من بين أولئك، بلغه ما قال نظام الملك بالحرف الواحد، فغضب السلطان ودس لنظام الملك من قتله بعد ذلك.

---

[1] الشحنة في التعابير القديمة يساوي ناظر المالية في التعابير الحديثة.

والأقرب إلى الصواب ما ذكره الأستاذ محمد (بك) الخضري في محاضراته بالجامعة المصرية من أن نظام الملك قتل بيد أحد الباطنية حين بعث عسكره إلى قلعة الموت، وحصر فيها الحسن بن الصباح، وأخذ عليه الطرق.

وهذا لا ينافي ما نقل من النفرة التي وقعت بين نظام الملك وبين ملكشاه، فإن حسد الخلفاء والسلاطين لوزرائهم معروف، وعلى الأخص في تلك الأيام المظلمة، التي طبعت بطابع الاستبداد وكان الأمر فيها للهوى، والحكم للجبروت!!

وقد أكثر الشعراء من رثاء نظام الملك، فمن ذلك قول مقاتل بن عطية البكري:

كان الوزير نظام الملك لؤلؤة ... يتيمة صاغها الرحمن من شرف

بدت فلم تعرف الأيام قيمتها ... فردها غيرة منه إلى الصدف

وكما بنى الفاطميون الجامع الأزهر في أواسط القرن الرابع لتأييد مذهب الشيعة، بني نظام الملك مدارسه في أواسط القرن الخامس لتأييد مذهب أهل السنة. وهكذا كان المسلمون ينشئون المدارس لتثبيت الملك، كما يفعل الأوربيون والأمريكيون في هذا الجيل، ولا عيب في ذلك: فالعلم من أمضى الأسلحة في استلال السخائم من الصدور، والسياسة أدهى وأمكر من أن تغفل مثل هذا السلاح!!

وكذلك عني نظام الملك بإنشاء المدارس والرباطات، ليغمر العلماء والزهاد بفضله، فيكون له منهم جرائد شفوية تنشر دعوته في الشام، والعراق، وخراسان، وهكذا فهم روح العصر فاستغل أهله، حتى ليذكرون أنه كان إذا دخل عليه الأئمة الأكابر لا يقوم لهم، ويجلس في مسنده، وكان له شيخ فقير، إذا دخل إليه يقوم له، ويجلسه في مكانه ويجلس بين يديه، وأنه سئل عن ذلك فقال: إن أولئك إذا دخلوا

يثنون علي بما ليس في، فيزيدني كلامهم عجبا وتيها وهذا يذكرني بعيوب نفسي فأرجع عن كثير مما أنا فيه!!.

وإذا صحت هذه الرواية، فإنها تدل على أن علماء ذلك العصر كانوا أضعف من أن يجهروا بالنهي عن المنكر، وإن الخاصة كانوا لا يأبون سماع النصح من الفقراء والمجاذيب؛ لأن السياسة كانت تقضي إذ ذاك بمجاملة هذا الصنف من الناس.

ومهما تكن نيات نظام الملك –والله عليم بذات الصدور– فإنه مشكور الصنيع، فقد أكثر من المدارس، ووقف عليها الأوقاف، ورتب للطلبة الجرايات، وبنى لهم الأسواق، والمساكن، والحمامات، وظلت مدارسه بأوقافها زمنًا ليس بالقليل، وتخرج منها كثير من العلماء والأدباء.

ولهذه المدارس النظامية فضل على الغزالي، فقد تلقى العلم في مدرسة نيسابور. وتولى التدريس في مدرسة بغداد، وسنعود إلى تفصيل ذلك في غير هذا الباب.

الفصل الخامس

روح ذلك العصر

-١-

من الصعب تحديد الروح السائد في عصر من العصور، وإنما غاية المؤرخ أن يذكر الشواهد والأمثال، ويستخلص منها ما يرجح أن تكون عليه صورة العصر الذي يدرسه.

وأنا أرجح أن تكون السذاجة هي الصفة الغالبة في ذلك العصر مع شيء من المكر في الأمراء والعلماء. ومن الشواهد الدالة على هذه السذاجة ما ذكره الغزالي في كتابه «المنقذ من الضلال» من أن الناس كانوا يقولون حين ترك المدرسة النظامية ببغداد: إنها عين أصابت الإسلام! وما نقل السبكي من أن أحد معاصريه سمعه يقول: «قطعت علينا الطريق وأخذ العيارون جميع ما معي ومضوا، فتبعتهم، فالتفت إلى مقدمهم وقال: ارجع ويحك وإلا هلكت! فقلت له أسألك بالذي ترجو السلامة منه أن ترد على تعليقتي فقط، فما هي بشيء تنتفعون به، فقال لي: وما هي تعليقتك؟ فقلت: كتب في تلك المخلاة، هاجرت لسماعها وكتابتها ومعرفة علمها، فضحك وقال: كيف تدعي أنك عرفت علمها، وقد أخذناها منك، فتجردت من معرفتها وبقيت بلا علم؟ ثم أمر بعض أصحابه فسلم إلي المخلاة. قال الغزالي: هذا مستنطق انطقه الله ليرشدني به في أمري، فلما وافيت طوس أقبلت على الاشتغال ثلاث سنين حتى حفظت جميع ما علقته، وصرت بحيث لو قطع علي الطريق لم أتجرد من علمي».

والسذاجة ظاهرة في هذا الحديث، فمن الواضح أن حفظ الكتب عن ظهر قلب حتى لا تبقى إلى حفظها حاجة، آفة عظيمة في تكوين العقول، فليست قيمة العالم فيما يحفظ، ولكن قيمته في حسن الفهم، وأصالة الرأي، وصواب الحكم.

ومن شواهد السذاجة ما أورده نظام الملك في وصيته[1] التي تركها لخلفه من الساسة حيث يقول:

«كان الإمام الموفق النيسابوري من جلة علماء خراسان، مبجلًا مهيبًا، وقد نيف على الخمس والثمانين، وكان السائد في عقيدة أهل زمانه أن كل من قرأ عليه العلوم العربية نبغ فيها، وبلغ الغاية، وانساق إليه العز والجاه، والنعمة والثراء، ولذلك وجهني أبي من بلدة طوس إلى نيسابور مع عبد الصمد الفقيه، لأقرأ على ذلك الأستاذ النابغة الجليل. وهنالك حظيت به، فوشجت بيننا أواصر المودة، وتأكدت عرى الصداقة ولحظني بعين عنايته، وأنزلته من نفسي أخص منزلة، وألطفها، ولبثنا على ذلك سنين عدة. وكنت أول ما نزلت به، وجلست في حلقته، لقيت تلميذين في مثل سني، حديثي عهد مثلي بالقراءة على الإمام الموفق. وهما عمر الخيام والحسن بن الصباح، وكانا آيتين في الفطنة والذكاء فأنس كل منا بصاحبيه، ونَمَتْ بيننا -نحن الثلاثة- أحسن صحبة وأمتنها. فكان إذا قام الإمام عن الدرس، وانقضت الحلقة، اجتمعنا فتذاكرنا ما تلقيناه عليه من المعارف. وكان الخيام من أهالي نيسابور، أما الحسن بن الصباح فكان أبوه ناسكًا ورعًا متقشفًا، ولكنه كان زنديقًا، فأقبل الحسن يومًا على عمر الخيام فقال له: لقد صح في أذهان الناس قاطبة أنه ليس من تلميذ يتخرج على الإمام الموفق إلا مصيبًا عزًا وإقبالًا وثروة وجاهًا، فهب أن ذلك لم يتفق لنا نحن الثلاثة جميعًا فإنه لا بد أن يقع لواحد منا، فماذا يكون حق الخائبين على ذلك

---

[1] مقدمة السباعي لرباعيات عمر الخيام.

الفائز الظاهر؟ قلنا له: اقترح ما تشاء، فقال: فلنتعاهد الآن على أنه من أصاب منا الثراء فعليه أن يقسمه فيما بيننا نحن الثلاثة على السواء، لا يؤثر نفسه بشيء دون أخويه فأجبنا: ليكن ذلك كما قلت. ثم تحالفنا على ذلك وتعاهدنا، ومرت الأعوام على ذلك، وغادرت خراسان متجولًا في فضاء الله، إلى غزنة، ثم إلى كابل، ولما عدت تقلدت منصب الوزارة في سلطنة السلطان ألب أرسلان، وبعد مدة من الزمن عرف ذلك صاحباي. فآتياني يطلبان إنجاز وعدي القديم وإشراكهما فيما انحاز لي من النعمة والثراء».

والذي يعنيني من هذه الحكاية هو أن يكون «السائد في عقيدة أهل ذلك الزمان أن من قرأ العلوم العربية على الإمام الموفق نبغ فيها وبلغ الغاية وانساق إليه العز والجاه» وتلك خرافة لا يسيغها غير ضعاف العقول، وصغار الأحلام، وقد رأيت كيف كان الناس يتداولون «هذه العقيدة» وكيف كان الطلبة يتغنون بها في حلقات الدروس.

وقد رأينا في الفصل السالف كيف من «نظام الملك» على ملكشاه بأن أقام له جيش الليل من العلماء والفقراء، مع أنه لا يصح الدفاع عن العلم بإظهار الحاجة إلى دعوات أهله ودموعهم، فبئس السلاح سلاح الدمع والدعاء. وإنما تحرس الأمم بالعلم في إقامة ما اعوج من الأخلاق وإيقاظ ما خمد من النفوس، وإحياء ما اندرس من آثار العقول.

ومن الشواهد على سذاجة ذلك العصر التحدث بالمنامات والأحلام وهي شارة الارتياب في الواقع، والإيمان بالخيال.

-٢-

أما ما كان في ذلك العصر من مكر الأمراء والعلماء، فدلائله كثيرة مبعثرة في الكتب هنا وهناك، ومؤلفات الغزالي شهيدة على ذلك، فكثيرا ما نراه يشن الغارة على العلماء الذين يكثرون الجدل، يتظاهرون بالغيرة على العلم والدين، وهم في الواقع طلاب جاه، وطلاب مال!!

ويمكن الجزم بأن الغزالي يمثل عصره أصدق تمثيل وهو يتحدث عن الأتقياء المزيفين من المتصوفة الذين يخدعون الناس باسم التقى، وهم في أنفسهم أنصار غي وضلال وإنما قلنا: إنه يمثل عصره، لأنه يتكلم في هذه الشئون بحماسة عظيمة، ليست صدى لمطالعاته في المؤلفات القديمة، وإنما هي أثر لغضبته من قوم عاش بينهم، ولقي من مكرهم ورياتهم أنواع الشقاء. وقد سبقه المعري بنقد المتصوفة، ولكن المعري كان غير مسموع الكلمة في نقدهم، أما الغزالي فكانت كلمته في ذمهم شديدة الأثر، لأنه صوفي، ولأن تلامذته كانوا عونًا له على نشر ما يريد.

وإليك أنموذجًا من كلامه عن أصناف المغرورين:

«وفرقة منهم عدلوا عن المنهاج الواجب في الوعظ، وهم وعاظ الزمان كافة، إلا من عصمه الله على الندور في بعض أطراف البلاد إن كان ولسنا نعرفه، فاشتغلوا بالطامات والشطح وتلفيق كلمات خارجة عن قانون الشرع والعقل طلبا للأغراب، وطائفة شغلوا بعبارات النكت وتسجيع الألفاظ وتلفيقها، فأكثر همهم الإسجاع والاستشهاد بأشعار الوصال والفراق، وغرضهم أن تكثر في مجالسهم الزعقات، والتواجد، ولو على أغراض فاسدة، فهؤلاء شياطين الإنس ضلوا وأضلوا عن سواء السبيل». ص٤٠٥ ج٣ إحياء.

على أن الغزالي كان بنفسه أداة من أدوات الصوفية، وسترى كيف كان ذلك في غير هذا الباب.

أما مكر الأمراء والملوك فقد كاد ينحصر في ختل العامة وجرهم إلى الحروب باسم الدين، فمن المتعسر أن تجد أمة إسلامية حاربت أختها باسم الملك في دعوة صريحة بل كانت كل أمة تختص نفسها بالهداية، وترمي غيرها بالمروق، وكانت الجماهير وقودًا لنار تلك الفتن في مصر، والشام، والعراق، وخراسان، وغيرها من ممالك المسلمين. ولعن الله الساسة أصحاب الأغراض.

obeikandl.com

الفصل السادس

البلدان التي عرفها الغزالي

نريد أن نذكر في هذا الفصل بعض البلدان التي عرفها الغزالي، لصلة ذلك بحياته، ونستثني بغداد؛ لأنها أشهر من أن تحتاج إلى تعريف، وقد خصها الأستاذ الكبير الدكتور طه حسين بكلمة ممتعة في كتابه ذكرى أبي العلاء، فليرجع إليه من أراد.

ونعتمد في وصف تلك البلدان على معجم ياقوت[1] لقرب مؤلفه من ذلك العصر، ولأنه يتصور تلك المواطن على نحو ما كان يعرفها الناس إذ ذاك.

طوس

مدينة بخراسان، تشتمل على بلدتين يقال لإحداهما الطابران (وهي التي دفن بها الغزالي) وللأخرى توفان، ولهما أكثر من ألف قرية، فتحت في أيام عثمان بن عفان رضي الله عنه، وبها قبر علي بن موسى الرضا وبها أيضًا قبر هارون الرشيد. وقال مسعر بن المهلهل: وطوس أربع مدن، منها اثنتان كبيرتان واثنتان صغيرتان، وبها آثار أبنية إسلامية جليلة، وبها دار حميد بن قحطبة، ومساحتها ميل في مثله، وفي بعض بساتينها قبر علي بن موسى الرضا وقبر الرشيد، وبينهما وبين نيسابور قصر هائل محكم البنيان، لم أر مثله علو جدران، وإحكام بنيان، وفي داخله مقاصير تحار في

---

[1] توفي ياقوت الحموي صاحب معجم البلدان في سنة ٦٢٦هـ. وكتابه من أجود ما عرف العرب في القواميس الجغرافية.

حسنها الأوهام، وأزجاج[١] وأروقة، وخزائن وحجر للخلوة، وسألت عن أمره فوجدت أهل البلد مجمعين على أنه من بناء بعض التبابعة، وأنه كان قصد بلاد الصين من اليمن، فلما صار إلى هذا المكان رأى أن يخلف حرمه وكنوزه وذخائره في مكان يسكن إليه، ويسير متخففان فبني هذا القصر وأجرى له نهارا عظيما آثاره بينة، وأودعه كنوزه، وذخائره، وحرمه، ومضى إلى الصين فبلغ ما أراد، وانصرف فحمل بعض ما كان جعله في القصر، وبقيت له فيه بعض أموال وذخائر تخفى أمكنتها. وصفات مواضعها مكتوبة معه. فلم يزل على هذه الحال تجتاز به القوافل، وتنزله السابلة، ولا يعلمون منه شيئًا، حتى استبان ذلك واستخرجه أسعد بن أبي يعفر صاحب كحلان[٢] لأن الصفة وقعت له.

وقد خرج من طوس عدد كبير من أئمة العلم أشهرهم أبو حامد الغزالي، وخرج منها الوزير «نظام الملك». قال ياقوت: وأهل خراسان يسمون أهل طوس البقر، ولا أدري لم ذلك؟

وقال رجل يهجو نظام الملك:

لقد خرب الطوسي بلدة غزنة ... فصب عليه الله مقلوب بلدته

هو الثور قرن الثور في حر أمه ... ومقلوب اسم الثور في جوف لحيته[٣]

وقال دعبل الخزاعي من قصيدة يمدح بها علي بن أبي طالب رضي الله عنه ويذكر قبري علي بن موسى والرشيد بطوس:

---

[١] مفردها: أزج بفتحتين ضرب من الأبنية.

[٢] من محاليف اليمن.

[٣] مقلوب طوس. سوط، ومقلوب ثور: روث.

أربع بطوس على قبر الزكي به ... إن كنت تربع من دين على وطر
قبران في طوس: خير الناس كلهم ... وقبر شرهم: هذا من العبر
ما ينفع الرجس من قرب الزكي ولا ... على الزكي بقرب الرجس من ضرر
هيهات كل امرئ رهن بما كسبت ... يداه حقا. فخذ ما شئت أو فذر

وطوس هذه هي موطن الغزالي. ومولده، وبها قبره، إلا أن صح ما رواه بعضهم من أنه ولد بقرية تسمى غزالة بالقرب من طوس. وأنا لا أستبعد ذلك، ما دام ياقوت يحدثنا أنه كان لطوس أكثر من ألف قرية. وإذا يكون الغزالي بفتح الزاي لا بتشديدها، على أن في طبقات السبكي ص٩ ج٤ رجلا آخر يلقب بالغزالي، ولا ضرورة لأن يكون هذا اسمًا لعائلة قديمة كما ظن الدكتور زويمر، بل يمكن أن يكون كلاهما نسب لتلك القرية الصغيرة: غزالة.

نيسابور

قال ياقوت: هي مدينة عظيمة. ذات فضائل جسيمة. معدن الفضلاء ومنبع العلاء. لم أر فيما طوفت من البلاد مدينة كانت مثلها. ثم قال: ومن الري إلى نيسابور مائة وستون فرسخا، ومنها إلى سرخس أربعون فرسخًا، ومن سرخس إلى مرو الشاهجان[1] ثلاثون فرسخًا. ثم قال: وأكثر شرب أهل نيسابور من قنى تجري تحت

---

[1] مرو الشاهجان: هي قصة خراسان وكان بها لعهد ياقوت عشر خزائن موقوفة تحوي نفائس الكتب منها خزانتان في الجامع إحداهما يقال لها العزيزية، وقفها رجل يقال له عزيز الدين أبو بكر عتيق الزنجاني، وكان فيها ١٢٠٠٠ مجلد، وأخرى يقال لها الكمالية، لا أدري إلى من تنسب، وبها خزانة شرف الملك المستوفي أبي محمد بن منصور في مدرسته ومات المستوفي هذا في سنة ٤٤٩ هـ وكان حنفي المذهب، وخزانة نظام الملك في مدرسته، وخزانتان للسمعانيين وخزانة أخرى في المدرسة العميدية، وخزانة لمجد الملك أحد الوزراء المتأخرين بها والخزائن

الأرض ينزل إليها في سراديب مهيأة لذلك، فيوجد الماء تحت الأرض، وليس بصادق الحلاوة، ثم قال: وعهدي بها كثيرة الفواكه والخيرات وبها ريباس ليس في الدنيا مثله، تكون الواحدة منه منا وأكثر، وقد وزنوا واجدة فكانت خمسة أرطال بالعراقي، وهي بيضاء صادقة البياض كأنها الطلع، ثم قال: وكان المسلمون فتحوها في أيام عثمان بن عفان رضي الله عنه والأمير عبد الله بن كريز في سنة ٣١ صلحًا. وبنى بها جامعًا، وقيل: إنها فتحت في أيام عمر رضي الله عنه على يد الأحنف بن قيس، وإنما انتقضت في أيام عثمان فأرسل إليها عبد الله بن عامر ففتحها ثانية.

وقد خرج من نيسابور عدد كبير من أئمة العلم أشهرهم الحافظ الإمام أبو علي الحسين علي النيسابوري، الذي رحل في طلب العلم والحديث. وعقد له مجلس الإملاء بنيسابور سنة ٣٣٧ وهو ابن ستين سنة وقد توفي سنة ٣٤٩.

الحاتونية في مدرستها. والضميرية في خامقاة هناك يقول ياقوت: (وكانت سهلة التناول لا يفارق منزلي منها مائتا مجلد، أكثرها بغير رهن) ويذكر أن فوائد معجمه من تلك الخزائن وفي مرو الشاهجان يقول بعض الأعراب:

أقرية الوادي التي خان ألفها ... من الدهر أحداث أتت وخطوب

تعالى أطارحك البكاء فإنما ... كلانا بمرو الشاهجان عريب

ويقول أبو الحسين مسعود بن الحسن الدمشقي:

أخلاي أن أصبحتم في دياركم ... فإنني بمرو الشاهجان غريب

أموت اشتياقا ثم أحيا تذكرا ... وبين التراقي والضلوع لهيب

فما عجب موت الغريب صبابة ... ولكن بقاه في الحياة عجيب

وقد أكثر الشعراء من ذم نيسابور. فمن ذلك قول أبي الحسن الاستراباذي:

لا قدس الله نيسابور من بلد ... سوق النفاق بمغناها على ساق
يموت فيها الفتى جوعًا وبرهم ... والفضل ما شئت من خير وأرزاق
والخير في معدن الغرثي وإن برقت ... أنواره في المعاني غير براق

وقال المرادي يذم أهلها:

لا تنزلن بنيسابور مغتربًا ... إلا وحبلك موصول بسلطان
أولًا فلا أدب يجدي، ولا حسب ... يغني، ولا حرمة ترعى لإنسان

وقال معن بن زائدة الشيباني يشكو ليله بنيسابور:

تمطى بنيسابور ليلي وربما ... يرى بجنوب الري وهو قصير
ليالي إذ كل الأحبة حاضر ... وما كحضور من تحب سرور
فأصبحت أما من أحب فنازح ... وأما الألى أقليهم فحضور
أراعي نجوم الليل حتى كأنني ... بأيدي عداة سائرين أسير
لعل الذي لا يجمع الشمل غيره ... يدير رحى جمع الهوى فتدور
فتسكن أشجان ونلقى أحبة ... ويورق غصن للشباب نضير

وفي نيسابور تلقى الغزالي عن إمام الحرمين الفقه والمنطق والأصول حتى برع أنداده، وزملاءه، وتولى في أخريات أيامه التدريس بالمدرسة النظامية في نيسابور مدة يسيرة، رجع بعدها إلى طوس، حيث اتخذ إلى جانب داره مدرسة للفقهاء وخانقاه للصوفية.

obeikandl.com

جرجان

مدينة مشهورة بين طبرستان وخراسان، فبعض يعدها من هذه وبعض يعدها من تلك، قيل: إن أول من أحدث بناءها يزيد بن المهلب بن أبي صفرة. وقد خرج منها عدد من الأدباء والعلماء والمحدثين. ولها تاريخ ألفه حمزة بن يزيد السهمي. قال الأصطخري: أما جرجان فإنها أكبر مدينة بنواحيها، وهي أقل ندى ومطرًا من طبرستان، وأهلها أحسن وقارًا وأكثر مروءة ويسارًا من كبرائهم، وهي قطعتان إحداهما المدينة والأخرى بكراباذ. وبينهما نهر كبير. ولجرجان مياه كثيرة، وضياع عريضة، وليس بالمشرق بعد أن تجاوز العراق مدينة أجمع ولا أظهر حسنًا من جرجان. قال ياقوت: وبها الزيتون والنخيل والجوز والرمان وقصب السكر والأترج وبها أبريسم جيد لا يستحيل صبغه، وبها أحجار كبيرة لها خواص عجيبة، وبها ثعابين تهول الناظر، ولكن لا ضرر لها.

وقد فتحت في سنة ١٨ هـ على يد سويد بن مقرن، وخرج منها عدد عظيم من العلماء، كانت تشد إليهم الرحال.

وكان بها صنف جيد من الخمر، وفيها يقول ابن خريم:

وصهباء جرجانية لم يطف بها ... حنيف ولم يلمم بها ساعة غمر
ولم يشهد القس المهيمن نارها ... طروقًا ولم يحضر على طبخها حبر
أتاني بها يحيى وقد نمت نومة ... وقد لاحت الشعرى وقد طلع النسر
فقلت اصطبحها أو لغيري فاهدها ... فما أنا بعد الشيب ويحك والخمر
تعفف عنها في العصور التي مضت ... فكيف التصابي بعد ما كمل العمر
إذا المرء وفي الأربعين ولم يكن ... له دون ما يأتي حياء ولا ستر

فدعه ولا تنفس عليه الذي أتى وإن جر أسباب الحياة له الدهر

ويذكر ياقوت أن أهل الكوفة كانوا يقولون: من لم يرو هذه الأبيات فهو ناقص المروءة ... وذكر أن مسلم بن الوليد صريع الغواني مرض مرض الموت بجرجان، وأنه رأى نخلة لم يكن في جرجان غيرها فقال:

ألا يا نخلة بالسفـ ـح من أكناف جرجان
إلا أني وإياكـ ـك بجرجان غريبان

وإلى جرجان رحل الغزالي ليتلقى العلم عن أبي نصر الإسماعيلي وعلق عنه التعليقة التي حدثتك عما فعل بها العيارون وهو راجع إلى طوس.

دمشق

لو أنك رجعت إلى ياقوت، وقرأت في معجمه أخبار هذه المدينة لرأيت كيف يضل العرب في بيداء الخيال، ولعرفت أن لهم حظًا من أساطير الأولين. وهذا الضلال في ذكر من بني مدينة دمشق يصور لنا منزلتها المقدسة، التي احتلت قبلًا رءوس المسلمين: فهم تارة يذكرون أن بانيها هو دماشق بن فاني بن مالك بن أرفخشد بن سام بن نوح عليه السلام، وتارة أخرى يقولون أنها بينت على رأس ثلاثة آلاف ومائة وخمس وأربعين سنة من جملة الدهر الذي يقولون: إنه سبعة آلاف سنة وحينًا يزعمون أن إبراهيم عليه السلام ولد بعد بنائها بخمس سنين وحينًا آخر يتوهمون أن العازر غلام إبراهيم عليه السلام هو الذي بنى دمشق.

وأغرب من ذلك كله قول ياقوت: وقال أهل الثقة من أهل السير أن آدم عليه السلام كان ينزل في موضع يعرف الآن ببيت أنات، وحواء في بيت لهيا، وهابيل في

مقري وكان صاحب غنم، وقابيل في قنينة وكان صاحب زرع، وهذه المواضع حول دمشق.

ووجه الغرابة فيه إخلاده إلى من يسميهم «أهل الثقة» وأين وصل أهل الثقة إلى أخبار آدم ونوح، يا أيها المؤرخ الخطير؟!

وأحب أن أنبه القارئ إلى قيمة الإغراق والغلو في وصف البلاد فإنه نعم الباعث على الرحلة والسياحة وإن دل على سذاجة الواصفين وأربعة أخماس الناس يشتاقون إلى رؤية دمشق حين يقرءون أنها كانت مأوى الأنبياء ومصلاهم، وأنه كان بها مسجد إبراهيم قبر موسى عليهما السلام، وأنه لم توصف الجنة بشيء إلا وفيها مثله!!

وكانوا يقولون: (عجائب الدنيا أربع: قنطرة سنجة، ومنارة الإسكندرية، وكنيسة الرها، ومسجد دمشق) ولهذا المسجد حديث عجيب، فقد ذكروا أن الوليد بن عبد الملك بن مروان لما أراد بناءه جمع نصارى دمشق وقال لهم: إنا نريد أن نزيد في مسجدنا كنيستكم يعني كنيسة يوحنا، ونعطيكم كنيسة حيث شئتم وإن شئتم ضاعفنا لكم الثمن، فأبوا، وجاءوا بكتاب خالد بن الوليد والعهد، وقالوا: إنا نجد في كتبنا أنه لا يهدمها أحد إلا خنق. فقال لهم الوليد: فأنا أول من يهدمها فقام وعليه قباء أصفر، فهدم وهدم الناس ثم زاد في المسجد ما أراد. قالوا ومكث في بنائه تسع سنين يعمل فيها عشرة آلاف رجل!!. وقال موسى بن حماد البربري: رأيت في مسجد دمشق كتابة بالذهب في الزجاج محفورا فيها سورة {ألهاكم التكاثر * حتى زرتم المقابر}[1] إلى آخرها، ورأيت جوهرة حمراء ملصقة في القاف، التي في قوله

---

[1] سورة التكاثر: ١-٢.

تعالى: {حتى زرتم المقابر} فسألت عن ذلك فقيل لي: إنه كانت للوليد بنت وكانت هذه الجوهرة لها، فماتت فأمرت أمها أن تدفن هذه الجوهرة معها في قبرها، فأمر الوليد بها فصيرت في قاف المقابر من (ألهاكم التكاثر * حتى زرتم المقابر). ثم حلف لأمها أنه قد أودعها المقابر فسكتت. ونقل الجاحظ في كتاب البلدان عن بعض السلف أنه قال: ما يجوز أن يكون أحد أشد شوقا إلى الجنة من أهل دمشق لما يرونه من حسن مسجدهم. ويقول ياقوت: ومن عجائبه أنه لو عاش الإنسان مائة سنة وكان يتأمله كل يوم لرأي فيه كل يوم ما لم يره في سائر الأيام من حسن صناعاته واختلافها ثم قال بعد كلام طويل: ولم يزل جامع دمشق على تلك الصورة يبهر بالحسن والتنميق إلى أن وقع فيه حريق في سنة ١٦١ فأذهب بعض حسنه.

وقد أكثر الشعراء من وصف دمشق، فمن ذلك قول أبي المطاع بن حمدان:

سقى الله أرض الغوطتين وأهلها ... فلي بجنوب الغوطتين شجون
وما ذقت طعم الماء إلا استخفني ... إلى بردي والنيرين حنين
وقد كان شكي في الفراق يروعني ... فكيف أكون اليوم وهو يقين
فوالله ما فارقتكم قاليا لكم ... ولكن ما يقضي فسوف يكون

وقال الصنوبري:

صفت دنيا دمشق لقاطنيها ... فلست ترى بغير دمشق دنيا
تفيض جداول البلور فيها ... خلال حدائق ينبتن وشيا
مكللة فواكههن أبهى الـ ... ـمناظر في مناظرنا وأهيا
فمن تفاحة لم تعد خدا ... ومن أترجة لم تعد ثديا

وقال البحتري:

أما دمشق فقد أبدت محاسنها ... وقد وفى لك مطريها بما وعدا

إذا أردت ملأت العين من بلد ... مستحسن وزمان يشبه البلدا
يمسي السحاب على أجبالها فرقا ... ويصبح النبت في صحرائها بددا
فلست تبصر إلا واكفا خضلا ... أو يانعا خضرا أو طائرا غردا
كأنما القيظ ولى بعد جيئته ... أو الربيع دنا من بعد ما بعدا

وقد أغرب الأقدمون في وصف دمشق، ومسجد دمشق، والذي ذكرته في ذلك كاف لما أنا بصدده من صلة الغزالي بهذه المدينة، فقد دخلها في سنة ٤٨٩ وأقام بها أيامًا قليلة، ثم عاد إليها بعد ذلك. واعتكف بالمنارة الغربية من الجامع، قال السبكي: واتفق أن جلس يومًا في صحن الجامع الأموي وجماعة من المفتين يتمشون في الصحن وإذا بقروي أتاهم مستفتيا، ولم يردوا عليه جوابًا. والغزالي يتأمل. فلما رأى الغزالي أنه ليس عند أحد جوابه، ويعز عليه عدم إرشاده. دعاه وأجابه. فأخذ القروي يهزأ به ويقول: المفتون ما أجابوني. وهذا فقير عامي كيف يجيبني؟ والمفتون ينظرونه فلما فرغ من كلامه معه، دعوا القروي وسألوه: ما الذي حدثك به هذا العامي؟ وكان الغزالي إذ ذاك في زي فقير مجهول – فشرح لهم الحال فجاءوا إليه وتعرفوا به، وسألوه أن يعقد لهم مجلسًا، فوعدهم، ثم سافر من ليلته.

وهناك أحاديث كثيرة عن صلته بدمشق يضيق عن ذكرها المقام. وحسب القارئ هذا المقدار.

بيت المقدس

من المواطن التي قدسها العرب والمسلمون، وتركوا أمرها للخيال يصورها كيف شاء، فهم يزعمون أن الله تعالى قال لسليمان بن داود عليهما السلام حين فرغ من بناء البيت المقدس: سلني أعطك، قال يا رب: أسألك أن تغفر لي ذنبي. قال لك ذلك. قال يا رب، وأسألك أن تغفر لمن جاء هذا البيت يريد الصلاة فيه، وأن تخرجه

من ذنوبه كيوم ولد. قال لك ذلكِ. قال وأسألك من جاء فقيرا أن تغنيه. قال لك ذلك. قال وأسألك من جاء سقيما أن تشفيه. قال ولك ذلك!! ويروون عن أبي ذر أنه قال: قلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم: أي مسجد وضع على وجه الأرض أولا؟ قال المسجد الحرام، قلت: ثم أي؟ قال: البيت المقدس، وبينهما أربعون سنة، وينقلون عن كعب أنه قال: معقل المؤمنين أيام الدجال البيت المقدس يحاصرهم فيه حتى يأكلوا أوتار قسيهم من الجوع، فبينما هم كذلك إذ يسمعون صوتا من الصخرة، فيقولون هذا صوت رجل شبعان، فينظرون، فإذا عيسى بن مريم عليه السلام. فإذا رآه الدجال هرب منه، فيتلقاه بباب لد فيقتله. ويكاد الرواة يتفقون على أنها «عرصة القيامة، ومنها النشر، وإليها الحشر» ويزعمون أن سليمان كان اتخذ في بيت المقدس أشياء عجيبة: منها القبة التي فيها السلسلة المعلقة ينالها صاحب الحق، ولا ينالها المبطل، حتى اضمحلت بحيلة غير معروفة!! وكان من عجائب بنائه أنه بنى بيتا وأحكمه وصقله، فإذا دخله الفاجر والورع، تبين الفاجر من الورع، لأن الورع كان يظهر خياله في الحائط أبيض، والفاجر يظهر خياله أسود؟ وكان أيضا مما اتخذ من الأعاجيب أن ينصب في زاوية من زواياه عصا أبنوس فكان من مسها من أولاد الأنبياء لم تضره، ومن مسها من غيرهم أحرقت يده!! قال ياقوت: (وقد وصفها القدماء بصفات أن استقصيتها أمللت القارئ) فيا ليت شعري ماذا عسى أن تكون تلك الصفات؟

إنه لا شك في أن كل ما وصف به بيت المقدس ليس إلا صورة لمبلغ المتقدمين من فهم حقائق الأشياء، فليست زيارته بمخرجة أحدا من ذنوبه، ولا براحمة فقيرا من فقره، ولا بمنقذة سقيما من سقمه، كما يزعمون أن الله قال في ذلك وليس هناك سند يثق به التاريخ عن بناء المسجد الحرام وبناء بيت المقدس بعده بأربعين سنة، كما يتوهمون أن النبي قال ذلك! ولن يأكل المؤمنون أوتار قسيهم من الجوع حين

يحاصرهم الدجال في بيت المقدس، ولن يعود عيسى إلى هذا العالم كما يتوهم كثير من الناس، وهب ذلك، فمن يدرينا أن المؤمنين لن يملكوا يومئذ غير القسي والنبال؟ ولا تنس السلسلة التي علقها في القبة سيدنا سليمان، والتي كان ينالها صاحب الحق،ولا ينالها المبطل، فتلك بلا ريب وليدة الخيال!! وما عسى أن يكون ذلك البيت الذي كان إذا دخله فاجر ظهر خياله أسود، وإذا دخله الورع ظهر خياله أبيض؟

اذكر هذه الصورة العجيبة لبيت المقدس، ثم اذكر قول ابن عباس: البيت المقدس بنته الأنبياء وسكنته الأنبياء، ما فيه موضع شبر إلا وقد صلى فيه نبي، أو قام فيه ملك، ثم اذكر ما يزعمون من أن أول شيء حسر عنه الطوفان بيت المقدس وأن فيه ينفخ في الصور يوم القيامة، وعلى صخرته بنادي المنادي يوم القيامة!

أذكر هذا كله، ثم دعنا نخبرك بأن الغزالي يتمدح في كتابه «المنقذ من الضلال» بأنه كان يرحل إلى بيت المقدس فيدخل الصخرة كل يوم ويغلق بابها لا يمكن إحصاؤها واستقصاؤها كما قال.

هذه المواطن التي قدسها الخيال، ووضعت في فضلها الأحاديث، أثرت تأثيرًا بينًا في حياة الغزالي العقلية، وطبعت نظره إلى العالم بطابع خاص. ولولا خوف الإطالة لوصفنا ما رآه في سياحاته من المشاهد والبقاع، ولكن الرغبة في الإيجاز أرضتنا عن الاكتفاء بأشهر ما عرف من البلاد.

الفصل السابع

أعيان ذلك العصر

الذي يهمنا من أعيان العصر الذي عاش فيه الغزالي إنما هو ذكر أساتذته لتأثيرهم في تكوين عقله، غير أنه من الحسن أن نذكر طائفة من علماء ذلك العصر لأن في ذلك تصويرًا لحركة العقول إذ ذاك. ونكرر ما قلناه من أن الغرض إنما هو أن نقرب للقارئ زمان الغزالي ومكانه، نوعًا من التقريب. فأما تحديد اتجاهات الفكر في تلك الآونة، فلا يسعه هذا المؤلف، الذي يراد به درس آراء الغزالي في الأخلاق.

الشهرستاني

هو أبو الفتح محمد بن عبد الكريم المولود سنة ٤٧٩ والمتوفى سنة ٥٤٨. تلقى العلم في نيسابور على أبي الحسن علي بن أحمد المدايني، وقد ذكر السبكي بقية أساتذته في ص٧٨ ج٤ من طبقاته. ومن أشهر تآليفه كتاب (الملل والنحل) وهو كتاب جيد قال في مقدمته: «وبعد فلما وفقني الله تعالى لمطالعة مقالات أهل العلم من أرباب الديانات والملل، وأهل الأهواء والنحل، والوقوف على مصادرها ومواردها، واقتناص أوانسها وشواردها، أردت أن أجمع ذلك في مختصر يحوي جميع ما تدين به المتدينون، وانتحله المنتحلون، عبرة لمن استبصر، واستبصارا لمن اعتبر» وقيمة هذا الكتاب ترجع إلى جمعه أكثر الآراء التي عرفها المسلمون لذلك العهد، ومن عيوبه الإيجاز والغموض في أكثر المواطن التي تحتاج إلى البسط والبيان: وقد رماه معاصروه بزيغ العقيدة «لمبالغته في نصرة مذهب الفلاسفة» وسترى فيما بعد أن الشك في عقائد أنصار الفلاسفة كان من علامات ذلك الجيل.

الأبيوردي

هو أبو المظفر محمد بن أحمد الأبيوردي، تفقه على إمام الحرمين، وشهد له أهل زمانه بحسن العقيدة –وكذلك كان العلماء دائمًا في حاجة إلى شهادة العامة لهم بحسن العقيدة كأنما الدين خرافة يسيغها العام وينكرها الخواص– وكان الأبيوردي يرى نفسه أولى بالخلافة وأحق بها من سواه، وقد جرت له هذه النزعة بلايا كثيرة، اضطر بسببها إلى مفارقة بغداد، فرجع إلى همذان واشتغل بالتدريس والتأليف، ثم توفي مسمومًا بأصبهان في ربيع الأول سنة ٥٠٧.

وكان الأبيوردي بارع الشعر، وله في الصبر على أحداث الدهر آيات بينات، ويندر أن نجد أديبا لا يحفظ قوله:

تنكر لي دهري ولم يدر أنني ... أعز وأحداث الزمان نهون
فبات يريني الخطب كيف اعتداؤه ... وبت أريه الصبر كيف يكون

ومن بديع الشعر أبياته التي يتشوق فيها إلى أحبابه، وقد خلاهم ببغداد.

ألا ليت شعري هل أراني بغيضة ... أبيت على أرجائها وأقيل
هواء كأيام الهوى لا يغبه ... نسيم كلحظ الغانيات عليل
وعصر رقيق الطرتين تدرجت ... على صفحتيه نضرة وقبول
وأرض حصاها لؤلؤ وترابها ... تضوع مسكًا والمياه شمول
بها العيش غض والحياة شهية ... وليلي قصير والهجير أصيل
فقل لأخلائي ببغداد هل بكم ... سلو فعندي رنة وعويل
ترنحني ذكراكم فكأنما ... تميل بي الصهباء حيث أميل
لئن قصرت أيام أنسي بقربكم ... فليلي على ناي المزار طويل

الأرجاني

هو أبو بكر أحمد بن الحسين الأرجاني، ولد حوالي سنة ٤٦٠هـ أصله من شيراز وتولى القضاء بمدينة تستر. وهو من فحول الشعراء وله هذه الأبيات:

سفرت كي تزود الحب منها ـــــ نظرة حين آذنت بالتنائي
وأرت أنها من الوجد مثلي ـــــ ولها للفراق مثل بكائي
فتباكت ودمعها كسقيط الـ ـــــ ـطل في الجلنارة الحمراء
فترى الدمعتين في حمرة اللو ـــــ ن سواء وما هما بسواء
خدها يصبغ الدموع ودمعي ـــــ يصبغ الخد قانيا بالدماء
خضب الدمع خدها باحمرار ـــــ كاختضاب الزجاج بالصهباء

وفي مقدور القارئ أن يرجع إلى كتب الأدب والتاريخ ليعرف من نبغوا في القرن الخامس، فإن الوقوف على آراء أولئك النوابغ من أقرب السبل إلى فهم روح ذلك العصر، أما نحن فلا نريد أن نطيل.